مقومات القراءة الحداثية في قراءةالنص القرآني

دراسة في كتاب الباحث محمد أركون "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني"

اسم الباحث: نورالدين الخرازي

الصفة: دكتور

جهة العمل: وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليمالعالي أكاديمية جهة – طنجة– تطوان–الحسيمة.

البريد الإلكتروني: nelkharazi@gmail.com

المقدمة

تتأطر هذه الدراسة ضمن سياق معرفي عام يتعلق بإشكال "قراءة التراث والموقف الحداثي منه"، إذ نجد كثيرا من القراءات الحداثية نظرت إلى علوم التراث نظرة قائمة على الدعوة إلى التجاوز وإحداث قطيعة معرفية ومنهجية معها، كما هو الحال بالنسبة لـ"علوم القرآن"، التي نادى كثير من رواد الحداثة العربية إلى اقتراح بدائل معرفية حديثة تقوم مقامها في فهم النص القرآني، وبهذا أصبحنا أمام توجه قرائي واضح المعالم له خصوصيته المعرفية و أسسه المنهجية الجديرة بالاهتمام والكشف والدراسة؛ إذ أضحى وجهة معرفية قائمة الذات، وقد أسهم في إبراز هذا التوجه في واقع البحث النصي والتأويلي الحديث كثير من الباحثين الحداثيين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر حسن حنفي ونصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وطيب تزيني والقائمة طويلة.

ويعد الجزائريمحمد أركونمن أهمالباحثين الحداثيين الذين نادوا باعتماد بدائل معرفية حديثة في فهم النص القرآني تقوم مقام علوم القرآن، التي تشكلت ضمن سياقات معرفية معينة وعبر تراكمات زمنية طويلة وأجيال تفسيرية متتاليةحتى استقرت على شكل مدونات عامة خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين؛ وقد تضمنت كل ما يتعلق بجوانب بحث النص القرآني وتفسيره وتأويليه، وأهم هذه المدونات: البرهان في علوم القرآنلبدر الدين الزركشي، والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.

ومن ثم فإن هاته الدراسة ستسائل بكل مسؤولية علمية مقترحات الباحث محمد أركون في هذا الخصوص، وذلك بمحاولة فهم تفاصيل مقوماتالقراءة التي يدعو إلى اعتمادها في فهم النص القرآني من خلال كتابه "القرآن: من التفسير

الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" الذي ترجمه: هاشم صالح، وطبعته دار الطليعة –بيروت، 2001م.

أ- مشكلة الدراسة

ينادي كثير من الباحثين الحداثيين إلى وضع قطيعة معرفية ومنهجية مع علوم القرآن بعدها علوما تراثية صارت –في نظر هؤلاء الباحثين–إلى لحظة الاستكانة، وذلك باقتراح بدائل معرفية حديثة في قراءة النص القرآني؛ تتمثل في مناهج العلوم الإنسانية الحديثة اللسانية منها والتأويلية والتاريخية، ومن ثم فإن هاته الدراسة ستحاول كشف بعض معالم التصور المعرفي الذي يقترحه الباحث محمد أركون بعده أحد رواد هذا التوجه الحداثي العربي الحديث.

ب- منهج الدراسة

سلكت هاته الدراسة منهجا قائما على استقراء أهم المعطيات المعرفية التي يعتمدها الباحث محمد أركون في قراءته، ثم محاولة تجميع تفاصيلها ضمن منطق تحليلي قائم على الربط بين مجمل الاقتراحات المعرفية، وهذا من شأنه أن يعمل على تقريب وجهة نظر القراءة التي يدافع عنها الباحث في كتابه موضوع الدراسة إلى عموم القراء والباحثين.

ج- أهمية الدراسة

تتمثل أهمية هاته الدراسة في كونها تعمل على إبراز أهم الأسس والمقوماتالمعرفية والمنهجية التي يقترحها محمد أركون في قراءة النص القرآني،وذلك بعدها بديلاقرائياحديثا عن علوم النص القرآني، والتي ما فتئت ينظر إليها في أدبيات فهم النص القرآني الإطار الوحيد الممكن لفهم النص القرآني.

د-هدف الدراسة

ليس الهدف من هاته الدراسة الإحاطة الشاملة بمشروع الباحث محمد أركون في قراءة التراث؛لأن ذلك لا سبيل إلى تحقيقه من خلال دراسة موجزة،وإنما الغاية هي محاولةالوقوف مع بعض القضايا المهمة والشائكة المتعلقة بعلوم القرآن،والتي يثيرها كتاب "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني".

هـ-خطة الدراسة

انتظمت فقرات هاته الدراسة في مدخل تمهيديومطلبين وذلك كالآتي:

*- تناولت الدراسة في المدخل التمهيدي العناصر الآتية:

1-تحديد الإشكال العام الذي يتناوله كتاب "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني".

2-تحديد مفهومي الأشكلة والزحزحة عند محمد أركون.

*- أما في المطلب الأول: فقد وقفت الدراسة معتفعيل خطة الزحزحة عبر نزع الخصوصية النصية المفارقة.

*- وفي المطلب الثاني: رصدت الدراسة الأسس المعرفية المقترحة في إمكان زحزحة مفهوم الوحي وقراءته.

*- الخاتمة: عبارة عن ملخص جامع لأهم ما تم تناوله.

مدخل تمهيدي

سنحاول في المدخل أن نحدد أمرين أساسين، وهما: الإشكال الذي يتمحور حوله موضوع الكتاب، ثم تحديد بعض المفاهيم الأساسية التي توجه مشروع البحث.

1-الإشكال التأويلي العام الذي يتأطر ضمنه موضوع الكتاب

يصدر الباحث محمد أركون عن إشكال تأويلي معرفي صعب في كتابه "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني"، تمثل في محاولة "إعادة تقييم مفهوم الوحي" ؛وذلك بـ"أشكلته"و"زحزحته"من التصورات التراثية التي أحاطته بنوع من الاعتبار الخاص ووضعته موضع التقديس، إذ نظرت إليه نظرة المفارقة المتعالية عن النصوص المتعارفة شعرا ونثرا.

إن هذا الإشكال المؤرق لا يعد بالنسبة إلى الباحث محمد أركون مجرد طرح نظري تأملي عابر بقدر ما شكل لديه هدفا عاما يحاول أن يحققه في واقع الممارسة التأويلية، يقول بهذا الخصوص: "نحن نهدف من خلال هذه الدراسة كلها إلى زحزحة مفهوم الوحي وتجاوزه. أقصد: زحزحة وتجاوز التصور الساذج والتقليدي الذي قدمته الأنظمة اللاهوتية عنه. نحن نريد أن نزحزحه باتجاه فهم أكثر محسوسية وموضوعية ولكن ليس اختزاليا[1].

ويبدو أن هذا الهدف ليس مجرد وليد لحظة عابرة بقدر ما لازم اهتمامات الباحث زمنا طويلا وعمل على تحقيقه، بل وشكل لديه قناعة راسخة ومشروعا أعد له العدة المعرفية اللازمة، وقد أكد الباحث ذلك بقوله و"لقد شرعت في تطبيق إشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات لتحليل الخطاب القرآني منذ أوائل السبعينيات من القرآن الماضي"[2].

والظاهر أن مفهوم الوحي الذي يقصده الباحث هو بشكل عام لكن المنطلق الأساس والنموذج الأمثل الذي يشتغل عليه هو الوحي القرآني على وجه الخصوص، لذلك يقول: "ومن المعلوم أن طموحي كان يهدف دائما إلى القيام بذلك منطلقا لتحقيقه من مثال الإسلام"[3].

وفي هذا الصدد فإننا نصوغ أسئلة مركزية عامة كالآتي:

ماذا يقصد محمد أركون بزحزحة مفهوم الوحي؟

وما خططه المنهجية التي يعتمدها في تحقيق ذلك؟

وما الأسس المعرفية التي يقترحها للوصول إلى هذه الغاية؟

2-تحديد مفهومي الأشكلة والزحزحةعند أركون

لقد لخص مترجم الكتاب هاشم صالح معنى الأشكلة التي يقصدها أركون لمفهوم الوحي في قوله: "نلاحظ أن أركون سوف يقوم أولا بتفكيك المفهوم التقليدي للوحي، هذا المفهوم المسيطر على البشرية منذ آلاف السنين، وذلك قبل أن ينتقل إلى المرحلة الثانية المتمثلة بإعادة تقييم هذا المفهوم المركزي وبلورة فهم آخر جديد له. وعملية التفكيك هي ما يدعوه بالأشكلة: أي جعل المفهوم إشكاليا بعد أن كان يفرض نفسه علينا كشيء بديهي غير قابل للنقاش"[4].

فالأشكلة إذن تقوم عند أركون على تفكيك مفهوم الوحي إلى تجلياته المادية المحسوسة، وذلك بمحاولة جعل المتعالي المفارق شيئا عاديا قابلا لأن يحلل على أساس العلوم الحديثة ومناهجها، وقابلا أيضا لكي يخضع لما تخضع له النصوص البشرية من نقاشات وتطبيقات حديثة.

وللوصول إلى مرحلة "الأشكلة" عمل الباحث على اقتراح البدء بعملية "الزحزحة"، أي "زحزحة مفهوم الوحي" ، وتقوم عملية "الزحزحة" عند أركون على أساس الاستبدال ، أي : استبدال مفهوم "الوحي" الإلهي بمفهوم "الخطاب النبوي" ، وذلك لكي "يحق لنا أن نتحدث عن شيء اسمه الخطاب النبوي أو خطاب النبوة أو خطاب الأنبياء le discours prophétiques. وهذا التمييز يتيح لنا أن نتجاوز معرفيا الآراء اللاهوتية الشائعة عن مفهوم الوحي"[5].

وللتخفيف من هالة الوحي القرآني وقدسيته العالية المفارقة يقترح الباحث زحزحته من الإلهية إلى النبوية، من خلال استبدال مفهوم "القرآن" بـ"الخطاب النبوي"؛ وذلك حتى يمكن آنذاك أن يُنْظَر إلى النص القرآني على أنه خطاب قابل لأن يخضع لما تخضع له النصوص البشرية من نقاشات وتطبيقات وفهوم.

ويقترح الباحث لهذه الغاية توظيف المنهج الظاهراتي القائم على التعليق، لأنه "إذا ما علقنا التحديديات اللاهوتية المفروضة بخصوص المفاهيم، فإننا نستطيع بسهولة أن ندمج الوظيفة النبوية في الآليات التاريخية–النفسانية– الاجتماعية– المنطقية التي تؤدي إلى ظهور(ظهور الرجال العظام)"[6].

فما الخطوة العملية التي يقترحها الباحث لتفعيل خطة "الزحزحة" في قراءة الوحي؟

المطلب الأول

تفعيل خطة الزحزحة عبر نزع الخصوصية النصية المفارقة

إن زحزحة مفهوم الوحي –عند الباحث– تقوم علىتفكيك التصورات التي بناها علماء القرآن حول النص القرآني عموما وعلماء الكلام والبلاغة خصوصا،

لذلك راح يفكك قضية الإعجاز معتبرا إياها بأنها قائمة على التصورات المتراكمة الموروثة التي أقامها المفسرون والمؤولون القدامى حول النص القرآني ليس غير.

فصفة الإعجاز – حسبه– غير راجعة إلى البنى الدلالية والتركيبية للخطاب القرآني، أي غير ذاتية في نظم النص وبنيته الداخلية كما أكدت ذلك مدونات علوم القرآن ، وإنما هي خارجية عن النص أسندها المؤولون للنص القرآني.

ومن ثم فهو يطالب بتجاوزها وزحزحتها ، م ستلهما في ذلك مسوغات الأنموذج الأنتربولوجي عند كلود ليفي ستروس القائم على "أن الفكر الأسطوري يبني قصوره الإيديولوجية بواسطة حصى وأنقاض خطاب اجتماعي قديم"[7].

لهذا فهو يرى أن مقولة"الإعجاز" مقولة نفسانية ثقافية مسقطة على الوحي من لدن المؤولين وليست أصيلة في بنية النص؛ ذلك "أن معنى العجيب المدهش أو الخارق للعادة بصفته مقولة نفسانية–ثقافية منتشرة في جميع هذه القصص ومنعكس(أو مسقط) على الخطاب القرآني نفسه. وحتى اليوم نلاحظ أن تصور الوحي لا يزال مهيمنا عليه من قبل هذا المعنى الخارق للعادة بصفته الأرضية الثقافية القاعدية التي ترتكز عليها المعرفة الأسطورية التي يدعوها المؤمنون بالحقيقة الدينية"[8].

يبدو أن تفكيك مقولة الإعجاز تشكل المدخل الأساسي لتحقيق هدف "الزحزحة"، لذلك نلاحظ أن الباحث ينظر إليها على أنها عقبة كؤود وحاجز معرفي حقيقي تعيق في نظره تطبيق المناهج الحديثة على الخطاب القرآني، ومن ثم فهو يؤكد أن "أول صعوبة تعترض طريقنا هي تلك الخاصة بالعقيدة اللاهوتية القائلة بإعجاز القرآن، ومؤداها أن الخطاب القرآني يستخدم العلامات اللغوية طبقا لمعايير نحوية معنوية وبلاغية تولد أنماطا معينة من الدلالة والمعنى. وهذه الأنماط المعنوية أو الدلالية لا تختزل إلى أي تجليات دلالية في أي لغة طبيعية

كائنة ما كانت. فهل خصوصيات أنماط الدلالة هذه راجعة فعليا إلى بنى المعاني اللازمة للخطاب القرآني، أم إلى آثار المعرفة التي يولدها هذا الخطاب أثناء سريانه (أو انتشاره) في المجتمع"[9].

ولكي يتحقق هذا الطموح القاضي بنزع خاصية الإعجاز عن النص القرآني يدعو الباحث إلى ضرورة اتباع خطوتين مهمتين: "أولا أن نقوم بتحديد تزامني للبنى المثولية أو الملازمة للدلالة والمعنى والخاصة بنظام اللغة العربية ما قبل القرآن. نقصد بذلك اللغة العربية التي لم يؤثر فيها بعد الحدث القرآني. وينبغي ثانيا: أن نبلور تحديدا بنيويا ونشوئيا قادرا على متابعة التوسع الدلالي للخطاب القرآني وانتشاره داخل الأنظمة الدلالية الثانوية أو الثانية بالأحرى ثم بالدرجة الأولى في الخطابات التي تحتل المرتبة الثانية"[10].

ومن أجل الوصول إلى الهدف الأكبر المنشود اقترح الباحث دراسة خاصة لنوعية الخطاب القرآني انطلاقا من سورة الكهف ؛لأن من شأن ذلك أن يحقق هدفين: "فمن جهة نريد تحقيق هدف نظري عن طريق الإسهام في تشكيل تمولوجيا للخطاب الديني. ونريد من جهة ثانية تحقيق هدف عملي عن طريق توليد أدوات جديدة وفعالة لخدمة الفكر الإسلامي المعاصر"[11].

لقد استلهم الباحث خطة "الزحزحة" منأدبيات الدراسات الغربية التي قدمها بعض علماء الغرب للكتاب المقدس (ا لتوراة والانجيل)؛ لذلك فهو يحاول أن يسقطها أيضا على الخطاب القرآني، أو بالأحرى أن يجريها في النص القرآني، وذلك لكون خطة الزحزحة أو ما سماها بالعملية التحويلية قد نجحت فيما يخص التوراة والإنجيل،ف"العملية التحويلية والأساليب اللغوية والأدبية والبلاغية التي كانت قد استخدمت من أجل خلع الصبغة التنزيهيةوالتقديسية والمتعالية والأنطولوجية على الكتاب كانت قد أوضحت وبرهن عليها علميا في ما يخص التوراة والإنجيل،

ولكنها لم تحصل حتى الآن في ما يخص القرآن. لماذا؟ لأن الظروف السياسية والثقافية والتربوية السائدة تحول دون القيام بمثل هذا العمل في كل السياقات الإسلامية(أي في جميع المجتمعات العربية والإسلامية)"[12].

إن المشابهة بين الكتب السماوية على مستوى المضمون العقدي التوحيدي لا يشك فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان، لكن على مستوى البنية اللسانية–السيميائية أو الدلالية، و أيضا التكوينية (التنزيلية)، فالأمر مختلف تماما ويضع أمام تطبيق هذا الأمر صعوبات جمة؛ ذلك أن القرآن نزل منجما ومفرقا حسب الوقائع والأحداث، في حين أن التوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة.

إضافة إلى مستوى التلقي التواتري عبر الأجيال مختلفا أيضا، وذلك لكون النص القرآني وصلنا باللغة التي نزل بها، أما التوراة والإنجيل فهما مترجمان بلغة غير لغتهما الأصلية؛ ومن ثم قد لا تستقيم إقامة أي مشابهة بينهما على هذه المستويات –في اعتقادنا– اللهم في بعض الموضوعات التي تتعلق بالعقائد كما سبقت الإشارة. كما أن النص القرآني تحدى المتلقين له من داخل بنيته الخطابية بأن يأتوا بسورة من مثله؛ وهي دعوة صريحة من النص القرآني إلى التحدي، أي أنه اعتبر نفسه معجز في ذاته بخلاف التوراة والإنجيل لم ترفعا هذا التحدي في وجه متلقيهما.

وقد أكد محمد عابد الجابري على جوانب الاختلاف الحقيقية المتعلقة بطبيعة البنية اللغوية والتكوينية بين القرآن والتوراة والإنجيل قائلا:"إن تفوق القرآن على التوراة والإنجيل في هذا المجال راجع إلى أنه مكتوب ومقروء باللغة التي نطق بها نبي الإسلام، في حين أن كتب أهل الكتاب تقرأ اليوم مترجمة، والترجمة تخون النص المترجم في لغته ومعانيه"[13].

إن الدعوة إلى نزع الخصوصية النصية المفارقة عن النص القرآني يشترك فيها أغلب رواد الحداثة العربية، فقد سبق وأن دافع عنها نصر حامد أبو زيد في كتابه "مفهوم النص دراسة في علوم القرآن"، عندما عرف النص القرآني بأنه "منتج ثقافي"[14]، وعلى نفس المنوال سار طيب تزيني الذي كان يلح على أن إعجازية النص القرآني "يجب أن تتراجع وتتبخر لصالح نزعة إنسانية من شأنها الاستجابة لمصالح الناس، ببساطة وحقيقة وشجاعة. وبذلك فالمفارقة السافرة، التي يلح عليها السلفويون ويرون فيها تجسيدا لعظمة النص المعني، تجد حدودها بل ربما كذلك نهايتها؛ نعني بذلك مفارقة المعجز الخارق العادي وإشكالية التواصل فيما بينها"[15].

فما هي إذن الأسس المعرفية التي يستند إليها أركون في تفعيل خطة الزحزحة في قراءة النص القرآني؟

المطلب الثاني

الأسس المعرفية المقترحة في إمكان زحزحة مفهوم الوحي

إن اقتناع الباحث محمد أركون بتحقيق هدف "الزحزحة" التي رام الوصول إليها جعلتهيسخر كل طاقاته المعرفية؛ لذلك نجده يحشد لهذه الغاية كل ما استجد من أدوات ومناهج في مجال العلوم الإنسانية الحديثة اللسانيات والتأويلية والسيميائياتوالأنتربولوجية والتاريخية،والفينومولوجية، وغيرها، والهدف من هذا كله هو أن يجعل من " الأبعاد التاريخية والأنتربولوجية واللغوية لمفهوم الوحي أكثر وضوحا، وذلك لكي أفتح إمكانيات جديدة من أجل توضيح مكانته المعرفية"[16].

إن من شأن تطبيق مناهج العلوم الإنسانية الحديثة بكل أبعادها أن يعمل على "ولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية. ولكن من دون أن نعزلها أبدا عن الظواهر الأخرى المشكلة للواقع الاجتماعي –التاريخي الكلي"[17].

وقد أخذ الباحث نموذجاعمليا من القرآن وحاول أن يطبق عليه المنهج السيميائي والأنتروبولوجي وهو سورة التوبة؛ لكونها "توفر لنا أفضل مناسبة لكي نعيد تقييم مفهوم الوحي عن طريق أخذ بعده التاريخي بعين الاعتبار، وليس فقط كشيء متعال، جوهراني، أبدي يقف عاليا فوق التاريخ البشري، على الرغم من أنه أرسل لهدايته وقيادته على هذه الأرض"[18].

نلاحظ اعتماد الباحث المنهج السيميائي في تحليله لعملية تلقي الوحي من خلال تطبيقه على سورة التوبة النموذج العاملي في التحليل ؛ حيث وظف البنية العاملية السردية في تفسير عملية تلقي الوحي ،يقول بهذا الخصوص و "إذا ما مزجنا بين البنية العامليةوالترسيمة القانونية لعملية القول، والترسيمة القانونية للمسار السردي، فإننا نحصل بالنسبة لكل الخطاب القرآني، على المخطط البياني التالي:

مرسَل إليه أول–مرسِل أول(أنا المتعالية+أنا–النحن) ← الموضوع (الخطاب النبوي)

↓

مرسَل إليه أول –مرسِل ثان(المتكلم أو القائل)

↙

المرسَل إليه الجماعي (أنصار/معارضون)

وقد عمل أيضا على تفعيل البعد الأنتربولوجي في دراسة سورة التوبة ، حيث ذهب إلى أن "سورة التوبة تتيح لنا أن نتعمق أكثر في دراسة البعد

الأنتربولوجي للمثلث المفهومي الذي اخترته كعنوان عريض:عنف، تقديس، حقيقة"[19].

إن الباحث ينظر إلى مفهوم" التوبة" نظرة أنتربولوجية تاريخية –اجتماعية تحققت بفعل التطور التاريخي للمجتمع العربي فهو يفسر مفهوم التوبة انطلاقا مما تعرفه عامة البنية الثقافية والاجتماعية من تطور اجتماعي وتاريخي عبر سيرورتها الزمنية، يقول في هذا الصددو "هكذا نستطيع الآن أن نلمح القيمة المزدوجة للتوبة. ففي السيرورة الاجتماعية–التاريخية التي تحيل إليها في الأصل، نلاحظ أنها تتمثل أساسا في الاستسلام من دون شروط، أقصد استسلام المعارضين. أو قل إنها تعني في أحسن الظروف عقد (سلام الشجعان) الذي يتيح لمعارضي الأمس أن يصبحوا مناضلين متحمسين من أجل الانتصار المطلق للذات الكبرى والمثالية"[20].

إن الباحث يفسر مفهوم " التوبة" بالبعد الاجتماعي التاريخي المتواضع عليه ثقافيا وعرفيا؛ ويتمثل في الاستجابة لسلطة عليا أو أخلاق وضعها المجتمع، حيث يحاول أن يستبعد مفهوم "التوبة" من إطارها الديني إلى الدنيوي لتحل محل ما هو إنساني أو سماه" بالوجه الدنيوي والعملي للتوبة. ونقصد به إطاعة سلطة راسخة، أو إطاعة أحكام أخلاقية وقانونية وثقافية مقبولة من قبل أعضاء الجماعة إلى حد كبير، لا سيما وأنهم هم منتجوها الفعليون وناشروها"[21].

يبدو أنه على الرغم من المحاولا ت المستمرة والطويلة المدى من قبل الباحث إلى نزع الخصوصية المفارقة عن النص القرآني وجعله نصا تاريخيا عاديا غير مفارق، كما حدث بالنسبة للكتاب المقدس في الغرب (التوراة والإنجيل)، وذلك باعتماد العلوم الإنسانية الحديثة بشتى مناهجها فإن الباحث يقر بعدم تفكيك ظاهرة الوحي الإسلامي (القرآن) في بعديها التاريخي والأنتربولوجي فهما لازالتا مجهولين،

لأن الأمر يتعلق بغموض حول"نمط الفكر الذي ولد الخطاب القرآني، والذي سيغدو لاحقا مستنبطا منه هو الآن ضروري جدا ....بمعنى آخر إن ظاهرة الوحي لا تزال متجاهلة في بعديها التاريخي والأنتربولوجي من قبل جمهور المسلمين"[22].

ومن ثم فإن الصبغة التنزيهيةوالتقديسية التي خلعت عن التوراة والإنجيل بواسطة الأساليب اللغوية والأدبية والبلاغية ومناهج الدرس اللساني والفلسفي الحديث –وهو هدف الباحث وطموحه الأكبر –لم تحدث بالنسبة للقرآن حتى الآن حسب الباحث، لأن "الظروف السياسية والثقافية والتربوية السائدة تحول دون القيام بمثل هذا العمل "[23].

يبدوأن محاولة الباحث أشكلة مفهوم الوحي وزحزحتهمن منظومة الفكر السائد والموروثة جيلا عن جيل ، قد وجدت في طريقها صخرة لا يمكن التهوين منها أو بالأحرى زحزحتها، لكون هذا الأمرارتبط بقضية يصعب التخلص منها وهي قضية إعجاز القرآن، التي تقف –حسب الباحث– عائقا قويا في وجه تطبيق مناهج العلوم الحديثة في تحليل الخطاب القرآني؛ ومن ثم يبدو أن الهدف الذي رسمه الباحث في بداية الدراسةوهو "زحزحة مفهوم الوحي أو إعادة تقييمه" قد وجد في طريقه عقبات يصعب القفز عنها أو تجاوزها لتجذرها في أدبيات المؤولين والمفسرين،والعقل الثقافي–السياسي–الاجتماعيالعربي الإسلامي، بل لكونها خاصية نصية قرآنية لا يمكن القفز عنها، ومن ثم يجب أن تفهم كما أعلنها النص صراحة وأقر بها في نظمه وخطابه.

الخاتمة

لقد عملت هاته الدراسة على مساءلة بعض القضايا المثيرة للاهتمام في كتاب"القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" للباحث محمد أركون بعده أحد أبرز رواد الحداثة العربية، الذي انشغل كثيرا ببحث قضايا التراث العربي الإسلامي، وقد وقفنا من خلال هاته الدراسة على بعض ما يقترحه من إمكانات جديدة في قراءة النص القرآني، فقد بدا جليا أن الباحث يستعيض عن علوم القرآن كلية في فهم النص القرآني؛ ومن ثم فقد أحل محلها العلوم الإنسانية الحديثة بكل مناهجها سواء أكانت لسانية أو تأويلية أو تاريخية أو غيرها.

لقد حشد الباحث محمد أركون كل ما استجد من مناهج البحث في مجال العلوم الإنسانية في كتابه موضوع البحث لتحقيق هدفا صعبا وهو "زحزحة مفهوم الوحي" كما هو مستقر في أدبيات البحث التراثي العربي الإسلامي وتفكيره، ولتحقيق هذه الغاية فقد عمل على محاولة نزع ما سماه بالخصوصية النصية المفارقة المتمثلة في مقولة "الإعجاز"،والتي رأى أنها تقف حاجزا منيعا في إمكان تطبيق هاته العلوم، لكن على الرغم من ذلك فقد عمل على تطبيق بعض هذه المناهج على بعض السور القرآنية مثل سورة التوبة والكهف والعلق والفاتحة، وهو بذلك يريد أن يحقق مشروعه الطموح.

وقد استلهم معالم هذا الطموح على ما يبدو من التراث الغربي الذي استطاع أن يزيح عن الكتاب المقدس(التوراة والإنجيل) مظاهر التعالي والتنزيه كما صرح بذلك الباحث في كتابه، وإن كان هذا الأمر يجد في طريق تطبيقه صعوبات جمة بالنسبة للقرآن على جميع المستويات النصية والتداولية والثقافية أيضا التي تحول دون تحقيق هذه الغاية.

وتجدر الإشارة إلى أن هاته الدراسة لم تُحِط بكل جوانب بحث الكتاب الذي يثير إشكالات وقضايا تأويلية كثيرة فيما يخص علوم النص القرآني وفهمه، وحسبنا أننا أثرنا الانتباه إلى بعض منها والتي نعدها ذات أهمية بالغة بالنسبة لموضوع الكتاب عامة وما يثيره من نقاشات معرفية كبيرة فيما يخص إشكال قراءة التراث عامة وإمكانات فهمه.

*الهوامش

[1] أركون محمد: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الأولى 2001م ص 76-77.

[2] المرجع نفسه، ص 5.

[3] المرجع نفسه، ص 16.

[4] المرجع نفسه، هامش ص 17 .

[5] المرجع نفسه، هامش 78.

[6] المرجع نفسه، ص 84.

[7] المرجع نفسه، هامش ص 168.

[8] المرجع نفسه، ص 30.

[9] المرجع نفسه، ص 172.

[10] المرجع نفسه، 173.

[11] المرجع نفسه، ص 146.

[12] المرجع نفسه، ص 172 .

[13] الجابري محمد عابد: مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول التعريف بالقرآن، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى: 2006م، ص424.

[14] أبو زيد نصر حامد: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، الناشر: المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء، الطبعة الأولى:2014م، ص 24.

[15] تزيني، طيب: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، الناشر: دار الينابيع– دمشق، الطبعة: الأولى 1997م، ص 379.

[16] أركون محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 17.

[17] المرجع نفسه، 70.

[18] المرجع نفسه، 49.

[19] المرجع نفسه، ص 62.

[20] المرجع نفسه، ص67.

[21] المرجع نفسه، ص 68.

[22] المرجع نفسه، 105.

[23] المرجع نفسه، ص 26.